

البعد الروحي في الشعر الشعبي الأمازيغي شعر "سي محمد أو محمد" أنموذجاً.

الدكتور خالد عيقون
جامعة تيزي وزو

مسؤولية كبيرة على عاتق الباحثين
وعلى أولى الأمر.

وإذا كان لم يُقدّر للأمازيغية أن
تداول كتابة على نطاق واسع فإنّ ذلك
جعلها تعتمد على الرواية الشفوية في
تبليغ رسالتها إلى المتلقين فتهياً لكثير
من النصوص الشفوية أن تتداول على
السنة الجماهير الشعبية أو تغنى أو تمدح
في المناسبات المحلية أو عبر الوسائل
السمعية أو البصرية، ويمكن اعتبار ذلك
نصوصاً مكتوبة تقرأ بالسماع.

وانطلاقاً من أنّ «محور وحدة
المجتمع الجزائري عند معظم شعراء
الأدب العربي: العربي والأمازيغي يندرج
في إطار الوحدة الوطنية والدينية إذ أنّ

الأدب الشعبي الجزائري حقل
جمالي ثري متنوع في لهجاته وأشكاله
ومضامينه تربطه علاقة جوهرية معنى
ومبنى، لكنّه لا يزال يفتقر إلى الكثير من
الجهود في جمعه وتدوينه ودراسته وما
جُمع من شعر وحكاية وأمثال وغيره
من ذخائر الفولكلور الجزائري يُعدّ لوحة
رائعة لا يقلّ في مضامينه وجمالياته
ودلالاته عن الأجناس الأدبية الأخرى.

فهو يُمثل قوة دافعة يشيع في النفس
الثقة ويفجر قدراتها الكامنة نظراً لعمق
أصالته وصدق تعبيره إلى حدّ يمثل
بُعداً استراتيجياً يجب عدم إغفاله في
عملية تشكيل الحاضر وبناء المستقبل
وضرورة حتمية، لا غنى عنها مما يوقع

وهكذا قضى "سي محند" طفولته وهو ينعم بالسعادة والهناء شملته عناية أهله وهو يحلم بأن يواصل حمل رسالة الأسرة ويعلي شأنها بالعلم والدين، وكانت ذكريات طفولته السعيدة تراوده طوال حياته.

بالأمس كنت غلاماً

جميلاً وسيماً سعيداً

تحت جناحي والدي

كنت ذائعاً معروفاً

أتقدم الصفوف

حتى أصبحت طالباً

لم يدم الصفاء طويلاً فقد انقلبت الأمور فجأة رأساً على عقب حين اكتسحت قوات الاحتلال قريته فخربتها وهدمت ديارها وشردت أهلها، واعتدت على الحرمات والمقدسات: المساجد والزوايا، بما في ذلك أروع مسجد في منطقة القبائل كلها وهو مسجد "توريرت ميمون" ببني يني، يقول الشاعر:

الجامع نتوريرت يغلي

مسجد توريرت تهدم

الإسلام دين الجميع يوحد بين قلوب سائر المواطنين ويشكل أوثق الصلات بين أفراد المجتمع»، ولأننا نلاحظ أنّ الجانب الروحي يحتل مكانة سامية في الشعر الشعبي الأمازيغي، خصوصاً في شعر "سي محند"، لذا سنحاول أن نركز عليه قصد إبراز طريقة توظيفه ودلالته ورؤيته ورموزه.

مولده ونشأته: ولد الشاعر "سي محند أومحمد" سنة 1843 بنواحي الأربعا ناث إيراثن من عائلة ميسورة متعلقة بالعلم والدين لها الفضل في تأسيس زاوية لتعليم أبناء القرية، تولى التدريس بها عم الشاعر، وهو المكان الذي احتضن طفولته فحفظ القرآن الكريم حفظاً تاماً، ثم انتقل "سي محند" إلى زاوية سيدي عبد الرحمن الإيلولي أين واصل دراسته، فارتشف العلوم اللغوية والشرعية كالنحو والفقه والحديث والتجويد حتى عدّ عالماً من علماء عصره.

ويبغان ربي يوحد

ذي سي محند أومحمد

إغرا القرآن يجود

وين ابنان إتركين

ذاك الذي بناه الأتراك

يرنا الزين ذالعلي

هندسته الأنيقة انطفأت

يرى ثيرك الدحاجن

ومعماراه مخرب منذك

يوثا الحزن الراسي

عليك بالحداد أيتها النفس

السادات إيهودن

أضرحة الأولياء في هلاك

هذا وقد اشتركت عائلة الشاعر

"سي أومحمد" في ثورة المقراني 1871

وكان نتيجة ذلك أن قتل والده رميا

بالرصاص في ساحة القرية أمام

أنظار ابنه الشاعر ونفي عمه المعلم إلى

كلدونيا، وسجن الشاعر وكاد أن يلاقي

حتفه لولا العناية الإلهية، وهرب أخوه

الأكبر إلى تونس بما خفّ حمله وغلا

ثمنه، ثم التحقت به أمه وأخوه الأصغر.

وهكذا تشتت العائلة ما بين الموت

والنفي والسجن والغربة، وبقي الشاعر

وحيداً لا مأوى له ولا ولي يحن عليه ولا

مال يقتات به، فانتقل فجأة من حياة

العزة والكرامة إلى حياة الذل والتشرد

والغربة، هذا الوضع الجديد المفروض

عليه فجّر في أعماقه ينبوع الشعر، الذي

وجد فيه ملجأً آمناً ودواء شافياً احتفى

به ولازمه إلى وفاته:

غورك أربي أنحرق

سلخغ نعوق

غورك يسهل كل شي

أربي إيلي ذاعوين

ذمحزون ووليو

الغربة يرتس صبر

إذا كانت الدراسة العلمية للنصوص

تلتزم بضرورة فهم الأسس الجمالية

التي تركز عليها بنيتها واكتشاف

دلالاتها وخصائصها وعلاقاتها التي

تربطها بجذورها، فإنه من خلال

تشريحنا وفحصنا لعينات من أشعار

"سي محمد أو محمد" تبين لنا أنها

تنبني على الأسس الآتية:

أولا - الوحدة النصية الاستهلالية:

ثفكيند القدرة نصبراس

أو يستهلها باسم من أسماء الله
الحسنى كاسم: الحنين، الرحيم، العظيم،
مثل:

الحنين كتش ذا الرحيم

سبحانك الله العظيم

مول الغاشي بلا اعداد

وهي الوحدات النصية نفسها التي
استهلت بها سور القرآن الكريم مثل:
الأنعام، الكهف، الإسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي
أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الإسراء: 1.

وهكذا تجلى الرمز عند الشاعر
في مستويات عديدة، وجاء توظيفه
تحت تأثير أسلوب القرآن الكريم وهذا
ما يوضح عمق الصلة بين نصوصه
ونصوص القرآن.

ب - الاستهلال بأسلوب القسم:
تستهل بوحدة نصية لغوية متمثلة في
أسلوب القسم، مثل قوله:
يقول وول ارينطق

غورى أور يحذيق

نك غوري يفيث فيحل

اعتمادا على قانون الاستهلال
نكتشف أنه وظف بحكم ثقافته الدينية
وانتمائه إليها جل استهلالات القرآن
الكريم حيث يستهل نصوصه بما
تستهل به السور القرآنية من وحدات
نصية موجزة مثل: (بسم الله، الحمد لله
وسبحان الله). ففي الاستهلال تتضح
المعالم الأولى لتأثر الشاعر وقد فتحها
على دلالات لا حصر لها، وهي كافية
لإبراز مدى التطور الذي شهدته القصيدة
الأمازيغية في توظيفها للرمز الديني،
وهذا الحشد الهائل من الرموز والصيغ
تعبر عن الرؤية المستمدة من المخزون
الإسلامي الذي ترعرع فيه الشاعر.

أ - يستهل الشاعر نصوصه بوحدة
نصية موجزة قد تكون "بسم الله" مثل:
بسم الله انبذوا اسفروا

ار لله أذ يلهو

إردناذى الوضيات

أو يستهلها بعبارة "سبحان الله"
مثل:

سبحان الله الواحد الأحد

ذوا لواجب اكنحمد

وكذلك مثل وقوله:

يقول ووليواس ورفان

العياذ يمعنان

أورثنفين ذلمحبة.

ويذكر القرآن الكريم بالسور التي

تستهل بأسلوب القسم، مثل: ﴿وَالشَّمْسِ

وَضَحَىٰهَا﴾ الشمس: ١.

﴿وَالنَّجْمِ وَالطَّارِقِ﴾ الطارق: ١. ﴿لَا

أَقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ البلد: ١.

ج - الاستهلال بالحروف الأبجدية:

ولقد بلغ اهتمام الشاعر "سي محند

أومحمد" بالدلالات الرمزية العربية

الإسلامية إلى حد توظيفه أو استخدامه

الحروف الأبجدية استخداما رمزيا في

مستويات متعددة، نكتفي بالتركيز على

حرف الخاء والراء والميم فيما يأتي:

الحرفيو يبذا غف الخا

يورا ذق النسخة

الدونيث أم لخريب

الحرف اثرفذع أف الرا

أطاس أي انزرا

نوقي كان ادنسعثب

الحرف أثرذع أفلميم

أوليو يسخميم

نتعجب ذقواس نزرا

إنّ هذا النهج الذي نهجه الشاعر في

نصوصه قد شاع في النصوص العربية

منذ القرن السابع عشر وقد ورد في

أشكال عديدة منها:

- استهلال بيت كل قصيدة بحرف

من حروف الهجائية مع مراعاة ترتيبها

الألفبائي.

مثل: الألف الفت الهوى محى ليحلف

واجعل قلبي دار حبطة بأطرافه

باحث دمعتي بأسرار القلب

شوف لخدى توجد المعنى مكتوب

ولا يزال الشعراء الأمازيغ

المعاصرون يصوغون أشعارهم على

هذا المنوال آخرهم الشاعر "رمضان

محفوف" صاحب المنظومة الألفبائية

التي تتشكل من سبعة ومائة بيت،

وجعل أساس كل بيت ومخرجه حرفا من

الحروف الألفبائية الثمانية والعشرين،

مع مراعاة ترتيبها الألفبائي وتكرار

الحرف في كل ثلاثية، مثل:

ثوساد.الموتس سا لحرف

الباثوفاد لهلاك ذا السبة

ثوساد الموتس سا لحرف

التاكشمغ دار الموتغ

ازئنيذ افرططة

اتسرون الطيور ذقني

وقد يعود هذا الاستخدام للحروف إلى التأثير بالأسلوب القرآني الذي تستهل كثير من سوره بالحروف مثل: الم - كهيعص - ص - ق - ن...

د - الاستهلال بالأمكنة الواقعية (المدن): تمثل كل المدن الجزائرية وطن الشاعر "سي محند"، دون أن ينسى معاناة الهجرة، وتؤكد ارتباط المهاجر المتين بوطنه، والحديث عن مرارة الغربة ومآسيها، وكل مدينة لها ميزتها الخاصة، فهذه عنابة يشد إليها الرحال ويطيب بها المقام، فقد استقر الشاعر بعنابة فترة من الزمن، وكان يكتب الرسائل العائلية للعمال المغتربين مقابل أجر زهيد فما هو يقول:

أطاس أي قغوان أعوين

علمن الوالدين

آدروحن أرك غر عنابة

سالا قلام أروذفرائين

غرواث اتسيلين

الحاباب إكوذتسغيم

وهذه الجزائر العاصمة المحروسة

في كل حي حارس يحميها...

لذايير تسمذينت يلهلن

ثبساس الميزان

أمكول أزنيق ذقس اعساس

أطاس إيوداك يزهان

أربحن الويزان

كل الخير يوثر فلاس

البعض الحوڤزنقان

ذي سيدي رمضان

ثفات أوردظهير فلاس

وهذه مدينة البليدة يجب أرجاءها

المغتربون:

هائين ذا لبليدة

ثارواث الغربية

دازناقى لا تسحويسن

وهذه مدينة ذراع الميزان التي
كستها حلة بيضاء من الثلوج وحاصرت
الشاعر حينما نزل بها، فوصف ذلك
بقوله:

أقلي ذى ذراع الميزان

كل شي يسلمبزان

لثكات ثوقى اتصحو

يوثد اذفل ذا بركان

اقطع ابردان

عاذ مازال ادرنوا

يساتس المى ذات عباس

يرزاد ثيفيراس

يرناد اتشينا بغبابلو

وهذه مدينة بويرة:

أقلي ذثمورث أنحمزة

ثذمدينث البويرة

عشقن أوك مدن سكناس

وهذه مدينة عين الحمام المحطة

الأخيرة في حياة الشاعر "سي محند"،

حيث عرج على الشيخ الحكيم "محند

أولحسين"، وهو بمثابة لقاء بين الشاعر
الجوال والحكيم المقيم، وبين العاطفة
والعقل وكلاهما يمثلان الثقافة
الأمازيغية أحسن تمثيل، كما يمثلان
حلقة وصل بين الثقافة الأمازيغية
والثقافة العربية-الإسلامية، وجرت
بينهما مناظرة، فهذا هو الشاعر "سي
محند" يخاطب الحكيم الشيخ "محند
أولحسين" قائلاً:

الشيخ محند أولحسين

نوساد أكنيسين

الباز أزدغن الحصين

إلاق أوسين

أثايا أكشمي أوسميض

السادات هكيث أعوين

سيثيزي أكين

ثمورث اتسددغن وياض

آه يا شيخي "محند أولحسين"

إليك هرعنا مسرعين

ركب الغيظ فؤادي

أيها الباز يا

ساكن الجبل الحصين

يليق لك رفيق مستقيم

غير أني أقشعر من الرهبة

بناؤه بما يأتي:

أ - الدعاء والتضرع إلى الله بإلهامه
الصبر والرحمة في الدنيا ودخول الجنة
في الآخرة مثل:

أتسخيلك اربي لحبيب

افكا نغذا اكران نصيب

مولاش الروح ينعدم

أيحنين يسطهارن الحق

فيحل ما ينطق

ما ذمشوم أد ياس واديس

سحذع غربى اندعو

اذفلاس يعفو

انمليل ذ الحنث اسين

يسرد الشاعر علينا محنته واصفا

حالته النفسية، على نحو يناجي ربه

أن يخفف آلامه وهمومه ويلهمه الصبر

والنصيب، مما يشبه الجو القرآني الوارد

في آخر السور القرآنية التي تختم

بالدعاء والتوسل إلى الله، مثل آخر سورة

البقرة ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة: 13.

أيها السادات للزاد احتياجي

به أطوي القمم وأمضي في
الفجاج

ولتمضي الحياة بأجيال جديدة في
بلادي

وهكذا تميز الشاعر في توظيفه

للمكان أو ما يعرف بأسلوب الرحلة

متنقلا من مكان إلى آخر، طمعا في

حياة أفضل أو الهروب من الواقع لكن

ينتهي به المطاف إلى المحطة الأخيرة

بالسقوط في الموت المحتوم. وهكذا لفظ

الشاعر أنفاسه بعد أن استثمر كل لحظة

من عمره استثمارا تاما في إنتاج الشعر

الذي وجد فيه لذة كبرى مستعينا به

في مواجهة كثير من الصعاب والمحن

التي انصبت عليه طوال حياته القاسية

فاحتفى بالشعر ووجد فيه ملجأ آمنا

مما ناله من الويلات وهو يعاني من

البؤس والوحدة والغربة.

ثانيا - الوحدة النصية الاختتامية:

يكاد الاختتام أن يكون مبنيا على

نفس خصائص الاستهلال، ويتميز

ب - الرضا والاستسلام للقضاء
والقدر: عبرت شخصيته عن الرضا
والصبر وتقبل القضاء والقدر لما
تقتضيه المشيئة الإلهية، مما هوّن عليه
بعض النكبات العائلية التي أصابته في
عائلته ووالده وبعض أقربائه ونكبته
في أمواله وممتلكاته وأراضيه:

يارب اركبنا وض النيف

أي جوزغ الحيف

مازال لعثاب أوزكا

البعض ثقبكباس لرزاق

كل الجهة اخراق

تشكرت ذف خاميس

البعض ثريط المشاق

ذا الزلط أو العشق

اورسيد ذغريب الرّيس

ج - الإحالة إلى القرآن الكريم
والحديث الشريف: يحيل الشاعر المتلقي
إلى المصادر التي تأثر بها، وهي القرآن
الكريم باعتباره أحد حفظته وحاملا
إياه في صدره:

أغريغ القرآن كل السطور

اتسزلق الطهور

اسميوارمدن معروف

سماني مدّن الملهوف

ناك هجاغ الحروف

ألّمي اغريغ ستين حيزب

أنسيغ أفوزكا يتسرو

أغريغ الحمدو

أرنينغ أربع ياسين

وكان "سي محند" محظوظا بحفظه

للقرآن الكريم ومعرفته للغة العربية

وتشبعه بالثقافة العربية الإسلامية

قد جلبت لصاحبه تلك المكانة العالية

المتميزة فتوجته كأحد الرموز الكبرى

في الأدب الأمازيغي الحديث، فهو يعتمد

على الكثير من الألفاظ والصيغ القرآنية

ويصوغ قصائده على ما يستوحيه منه

وقد بلغ أحيانا حدّ النسج على منوال

الأسلوب القرآني.

الإحالة إلى علم التوحيد والإشادة

بعلمائه:

إيكاذ أثحبوظ الوحيد

أغران نتوحيد

فهمن كل المعاني

الطالب، الكراس، اللوحة، الدواة، يقول
الشاعر:

زكني نك ذا لطالب

أن ستين حيزب

ثذواتس ثورقا كراس

ورغم أن محور الشاعر ينبني على
تشريح الواقع الذي عاشه، والحياة
الاجتماعية التي يحياها ووصف تجربته
الشخصية ومسار حياته وتنقلاته،
إلا أن نصوص شعره تزخر بالصور
والرموز والدلالات الدينية، وقد وردت
بتراكم وكثافة إلى حدّ الجزم بالقول
قد لا نجد شاعراً استطاع أن يجمع في
شعره بين الواقع واللاواقع، وبين الدين،
والتمرد والرضا بالقضاء والقدر، جمع
كل ذلك في باقة واحدة فوجد سبيله إلى
الأعماق والوجدان، فتلقفت الجماهير
شعره وحفظته وتداولته لأن كل فئة
وجدت فيه ما تبحث عنه.

إنّ هذا التوظيف للتراث، وهذا
التواصل الدلالي من شأنه أن يمدّ الجسور
اللغوية، لإقامة التواصل بين التراثين
الأمازيغي والعربي، وبذلك أسس الشاعر

- الإحالة إلى الحديث الشريف:

اكا اتسنوفا ذا لحديث

قبليث نغ أجيث

واقي ذا لوقت اخذاع

ثالثا - الألفاظ والصيغ:

تشكل نصوص الشاعر بألفاظه
وصيغه عوالم دلالية، وارتبطت الألفاظ
الموظفة أكثرها بالمنظومة العربية
الإسلامية خصوصا القرآن الكريم
وباعتبار الاقتباس من القرآن يمثل
شكلاً من أشكال التواصل واستلهام
التراث الديني وهكذا رسم الشاعر بشعره
حدود هذا التفاعل الثقافي والتواصل
الحضاري، وهذا دليل على تمسكه
بأصالته وارتباطه بالتراث العربي
الإسلامي.

وظّف الشاعر في متنه الشعري
ألفاظ القرآن بكثافة، وتراكم، ونكتفي
بذكر عيّنة من هذه الألفاظ مثل: الله،
رب، نسخة القرآن، الحزب، القلم، الجنة،
الموت، الصبر، الحمد، سورة، يس،
العظيم، الحنين. وترمز بعض الألفاظ
إلى ذكريات طفولته الدراسية مثل

الإسلامي يمثل المصدر الأساسي والأول
ورافدا مهما من روافد الأدب الشفوي. ■

ملاحظة: للموضوع مراجع

وأصل أقوى جسور التواصل والترابط
بين الماضي والحاضر وبين المشرق
والمغرب.

تمثل أشعار "سي محند" نموذجا
رائعا ومثالا رائدا في إطار التواصل
والتلاقي بين الأدبين الأمازيغي
والعربي الإسلامي، وباعتبار التراث

